

دراسة تحليلية لكتاب نصف قرن من البحث التاريخي بالجامعة الجزائرية 1962-2012م

الأستاذ الدكتور مولود عويمر

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

لقد صدر كتاب "نصف قرن من البحث التاريخي بالجامعة الجزائرية 1962-2012" عن كلية الآداب والحضارة الإسلامية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة في عام 2013. وهو يقع في 230 صفحة من الحجم المتوسط. أشرف على إنجاز هذا العمل البروفيسور علاوة عمارة أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، والبروفيسور مولود عويمر أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة الجزائر 2. وشارك فيه كل من الدكتور عبيد بوداود أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة معسكر، وعاشور منصورية أستاذ مساعد بجامعة باتنة، وكريم بوترعة أستاذ مساعد بجامعة قسنطينة 2.

يتضمن هذا الكتاب كما يشير عنوانه الرسائل الجامعية التي أعدها الباحثون الجزائريون وغيرهم في الجامعات الجزائرية في مجال التاريخ على امتداد نصف قرن. وقد تعرض المشرفان على هذا العمل لمجموعة أسباب التي دفعتهما إلى محاولة الكشف والاهتمام بإنجازات الجامعة الجزائرية، وقراءة واقع البحوث التاريخية فيها، واقتراح حلول للارتقاء بالبحث التاريخي في المستقبل.

من خلال متابعتنا لحركة البحث التاريخي في الجامعة الجزائرية بداية من التحاقنا بها في عام 2004، وصولاً إلى غاية 31 ديسمبر 2012، تمكنا من ملاحظة المشكلات المشتركة التي يعاني منها الباحثون، وفي مقدمة تلك المشكلات ضبابية الرؤية والتردد والضياع، كل ذلك كان بسبب غياب بنك معلومات عن حصيلة المواضيع التي درست في رحاب جامعاتنا.

وفي هذا المناخ الذي تسوده الفوضى بدأنا بتكثيف الجهود من أجل وضع دليل لتوفير شروط مواتية للبحث والإبداع والابتكار من خلال الاشتغال بالقضايا الجديدة والابتعاد عن التكرار والاجترار.

أما بخصوص المحتوى، فالكتاب يتضمن كلمة افتتاحية للدكتور إسماعيل سامعي، ومقدمة قصيرة وبخثين، الأول للبروفيسور عويمر عنوانه "من أجل التاريخ"، والثاني للبروفيسور عمارة حدد من خلاله "التوجهات الكبرى في الدراسات التاريخية الوسيطة (1962-جوان 2012)".

في القسم الثاني وخلال 4 فصول عرض الباحثون المذكرات والرسائل حسب التقسيم المعروف: التقديم، الوسيط، الحديث، والمعاصر. وتضمنت كل رسالة معلومات دقيقة عن الباحث، وعنوان البحث، وتاريخ ومكان المناقشة والتخصص الدقيق.

معوّقات في طريق البحث

لقد كان عملي في المرحلة الأولى هو رصد الرسائل الجامعية التي نوقشت في 3 مؤسسات كبرى، وهي: قسم التاريخ (جامعة الجزائر)، المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة)، وكلية العلوم الإسلامية (الخروبة). وأعترف هنا أنني لم أتوصل إلى المعلومة إلا بصعوبة أحيانا، والتحليل أحيانا أخرى، ذلك بأن عقلية كتم المعلومة ما زالت منتشرة بيننا باعتبارها سرا ولا يجب الإفصاح عنها.

ومن الجدير بالذكر أن هذه العقلية رغم أنها كانت صائبة خلال الصراع مع الاستعمار ومعركة التحرير، وهي "مقبولة" خلال فترة الحكم الاشتراكي في الجزائر الذي فرض الذهنية الأحادية في كل المجالات، إلا أنها أصبحت غير مقبولة اليوم ونحن نعيش في عصر العولمة والثورة التكنولوجية وانتشار المعلومات بشكل رهيب. وعلى الرغم من تلك الصعوبات أو المعوّقات استطعت أن أحصي غالبية الرسائل المنشودة.

أما عملي في المرحلة الثانية فهو يكمن في قراءة الجزء المتعلق بالتاريخ المعاصر الذي هو من صميم اختصاصي العلمي. وقد توصلت إلى عدة نتائج كشفت عنها في بحث موسوم: "من أجل التاريخ" مستلهما العنوان من المؤرخ الفرنسي الشهير مارك بلوك صاحب كتاب: "تقريظ التاريخ أو حرفة المؤرخ"¹. وهذه هي خلاصة النتائج التي توصلت إليها.

التاريخ السياسي المعاصر سيد التخصص:

التاريخ السياسي المعاصر هو سيد التخصص كما يتضح من قائمة الرسائل الملحق بهذا الكتاب. يهتم الباحثون بالتاريخ المعاصر رغم أن البحث فيه مغامرة تحتاج إلى جهد مضاعف للحصول على المادة الأرشيفية التي هي في غالب الأحيان بعيدة عن متناول الباحث لأسباب عديدة. فمن مجموع 1041 مذكرة ورسالة (دبلوم دراسات معمقة، ماجستير نظام قديم، ماجستير نظام جديد، دكتوراه الحلقة الثالثة، دكتوراه العلوم، دكتوراه الدولة)، كان نصيب التاريخ المعاصر، (515)، واحتل بذلك المرتبة الأولى. وهي موزعة على النحو التالي: الجزائر (340)، قسنطينة (91)، وهران (44)، باتنة (32)، بشار (6)، سيدي بلعباس (3)، تلمسان (2)، أدرا (1).

هذا بالإضافة إلى رسائل كثيرة أنجزت في أقسام العلوم السياسية والعلاقات الدولية تناولت قضايا تاريخية معاصرة. هذا الاختيار يعود لعدة أسباب منها: أن التاريخ المعاصر هي المادة التي درسها الطالب باستمرار في مختلف المراحل التعليمية وبالتالي يشعر أنها أقرب إليه من غيرها ويستطيع جراء ذلك أن يبدع فيها، ويقدم فيها إضافات للبحث التاريخي. والسبب الآخر يكمن في الاعتقاد السائد أن التاريخ المعاصر يؤهل للتوظيف في وسائل الإعلام كصحافي أو محلل سياسي في القنوات الفضائية المنتشرة في كل مكان.

ولا بد أن أشير هنا أن الرسائل التاريخية المعاصرة التي كانت لمدة طويلة لا تتجاوز حدود عام 1914، م اقتربت بعد ذلك من عام 1945، وتقدمت إلى أن أصبحت محصورة بين 1954 و 1962. غير أن في الأعوام الأخيرة ظهرت دراسات تجاوزت هذه العتبة حيث تناولت قضايا وأحداث راهنة (ديلمي، 2000، سعدوني، 2001/ شلاي، 2004/ لونيسي، 2005/ شيني، 2009، عشوري، 2012). فلا غرابة في ذلك، فالحدث بمجرد أن ينتهي يصبح في ذمة التاريخ، وفي عرين المؤرخ.

المقاومة والحركة الوطنية:

تناولت الدراسات المقاومة العسكرية والثقافية والسياسية للاحتلال. فظهرت رسائل حول قادة المقاومة كالأمير عبد القادر (قاسي، 1999/ بن ساعد، 2005/ لعربي، 2009/ سلطانة، 2011) وأحمد باي (بوعزة، 1992)، وبوبغلة (سي

يوسف، 1981)، وناصر بن شهرة (بوقرين، 2012)، وأسرة المقراني والحداد (بوعزيز، 1976). كما قدمت عدة رسائل حول دور الزوايا والطرق الصوفية والعلماء والقضاة في المقاومة (تلمساني، 1998 / شرقي، 1998 / بونقاب، 2003 / بوكسية، 2007 / قلفاط، 2008 / دركوش، 2012 / موهوبي، 2012 / كحول، 2012).

وظهرت دراسات عديدة عن الحركة الوطنية في شموليتها أحيانا، وفي تقسيماتها الأيديولوجية أحيانا أخرى، ولا بد أن نشير هنا إلى الأعمال الرائدة لعدد من الأساتذة الجزائريين الذين ساهموا في وضع أسس البحث في تاريخ الجزائر السياسي المعاصر بكتاباتهم المتعددة، وتأطير طلبية العليا في هذا التخصص، وهم: أبو القاسم سعد الله، محفوظ قداش، محمد العربي الزبيري، جمال قنان، ناصر الدين سعيدوني، عبد الحميد زوزو، عمار هلال، عبد الكريم بوالصفصاف، يحيى بوعزيز،... الخ. وتدعم الجيل الأول من المؤرخين الأكاديميين في السنوات الأخيرة بعدد كبير من الباحثين الذين ناقشوا رسائل الدكتوراه وتحصلوا على التأهيل الجامعي خاصة في الفترة الممتدة بين 2005 و2010. وتأسست منابر عديدة في أقسام التاريخ عبر كامل التراب الجزائري، وأقيمت ملتقيات كثيرة عاجلت المقاومة والحركة الوطنية في كل جوانبها وأبعادها، غير أن عدم نشر الأوراق العلمية إلا نادرا قلل من أهمية هذه اللقاءات العلمية.

أنجزت رسائل عديدة تناولت قضايا متعلقة بالحركة الوطنية ودور الحركات الاجتماعية والأحزاب السياسية (مومن، 2001 / جيلالي بلوفة، 2002، 2008 / علاوي، 2009) في نشر الوعي ومواجهة المشاريع الاستعمارية خاصة في مجالها الثقافية والحضارية (جلال، 2002 / مريوش، 2007 / / تاحي، 2007 / تونسي، 2008 / العكروت، 2009 / بوطيبي، 2009).

التاريخ المقارن والعالمي:

يلاحظ إهمال التاريخ العالمي على مستوى الدراسات العليا، فنادرا ما يخصص بحث جامعي في مختلف الأطوار (مذكرة تخرج الليسانس، الماجستير، الدكتوراه) لدراسة موضوع خارج حدود الجزائر. بينما تفرض علينا متطلبات التنمية وتحديات العولمة التفتح أكثر على العالم الغربي والآسيوي في جوانبه الحضارية والثقافية.

وليس في حدود علمي باحث جزائري مختص في تاريخ الصين، أو الهند أو الولايات المتحدة الأمريكية أو الكيان الإسرائيلي. وتمثل كل هذه الدول وغيرها أبرز الأقطاب الدولية التي تلعب دورا بارزا في الحياة السياسية والاقتصادية العالمية، وتربطنا بها علاقات تجاذب أو تنافر بشكل أو آخر. وإذا كنا نجهل ماضيها وتراثها ومقومات حضارتها وثقافتها، فكيف يمكن لنا أن نتعامل معها بشكل سليم ونستفيد منها بصورة إيجابية؟

وتبين الإحصائيات التالية على أن المغرب العربي استحوذ على الرسائل التي تناولت تاريخ الآخر، وهي: تونس: 27، المغرب: 15، ليبيا: 12، مصر: 7، السودان: 7، العراق: 6، فلسطين: 4، موريتانيا: 3، سوريا: 3، الأردن: 1، عمان: 1. أما العالم الغربي فلم نجد حوله إلا سبع رسائل (قون، 2004 و2008، بلعوز، 2008) تناولت تاريخ الإسبان في القطاع الوهراني بشكل خاص، ورسالة واحدة تخص العلاقات الجزائرية الإيطالية (سعيد، 2000)، وأخرى تناولت العلاقات الأمريكية الجزائرية (تيتة، 2001/ تابلت، 2007)، وأخرى درست العلاقات الروسية اليابانية (ياحي، 2003).

يعتبر الدكتور عبد القادر زبادية رائد الدراسات الإفريقية في الجزائر فقد ناقش رسالة دكتوراه في الجامعة البريطانية في بداية السبعينيات حول "مملكة سنغاي في عهد الأسقيين"، غير أن ابتعاده عن الجامعة الجزائرية لانتدابه في المنظمات الإفريقية الدولية حرمت جيلا كاملا من التكوين في هذا المجال الحيوي من الدراسات المعاصرة. غير أنه عاد الاهتمام في السنوات الأخيرة بالدراسات الإفريقية خاصة بعد فتح تخصص في هذا المجال في جامعة الجزائر 2. وتخرجت عدة دفعات من الطلبة قدمت رسائل ماجستير حول الحركات التحررية في إفريقيا (بنادي، 2010/ بوسليماني، 2010/ بتقة، 2010/ حبش، 2010/ نوي، 2011).

وقلت كذلك الدراسات التي اهتمت بالمقارنة، فنجد 7 رسائل فقط خصصت لهذا الغرض، منها 6 رسائل هي مقارنة بين علمين: حمدان بن عثمان خوجة ورفاعة رافع الطهطاوي (بن أعراب، 2003)، محمد البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان (فايو، 2001)، الثعالبي وعلال الفاسي (رجاي، 2005)، الأمين العمودي ورايح زناتي (ثنيو، 1998)، فرحات عباس والحبيب بورقيبة (معزة، 2010)، أو

بين ثلاثة أعلام محمد بن رحال وعبد الحليم بن سماية والشريف بن حبيلس (فضل، 2012)، أو بين حزينين: حزب الشعب الجزائري وحزب الدستور التونسي (شايب، 2007)، أو بين جريدتين: المجاهد الجزائرية والصبح التونسية (سريج، 2010).

إن عدم الاهتمام بالإشكاليات التاريخية الكبرى، والانغلاق على القضايا المحلية الضيقة، جعل المؤرخ الجزائري بعيدا عن النقاشات والحوارات الفكرية التي تصنع المشهد الثقافي والفكري في العالم بشكل عام، والعالم العربي بشكل خاص. فهذا المؤرخ والمفكر اللبناني الكبير الدكتور رضوان السيد يؤرخ للأجيال الأربعة للمؤرخين الأكاديميين العرب المعاصرين، فلا يذكر مؤرخا واحدا من الجزائر، بينما أشار إلى بعض المؤرخين من المغرب (عبد الله العروي، محمد عابد الجابري، علي أومليل)، ومن تونس (هشام جعيط).

تاريخ الصحافة والرأي العام:

نلاحظ في السنوات الأخيرة ارتفاع عدد الرسائل التي أعطت أهمية خاصة للصحافة الجزائرية والأجنبية كوثيقة يعول عليها في كتابة التاريخ. وقد حظيت عدة جرائد جزائرية باهتمام الباحثين وهي: الشهاب (مرغيت، 2003/ كراغل، 2007/ بودينة (2010)، والبصائر (بسيس، 2004)، بلباني، 2012/ صدوقي، 2012)، المبشر (لونسي، 1995/ تجاني، 2007)، النجاح (يعيش، 2002/ بوطبة، 2010)، المغرب العربي (مخلوف، 2012)، المنهاج (شعشوع، 2012)، المنار (وائل، 2012)، الشعب (شني، 2011)، المجاهد (سريج، 2010/ عامر، 2010، كبيش، 2010).

ووضعت بحوث حول الصحافة الاستعمارية في الجزائر، وهي: أوروون ريبليكا (صوفي، 1976)، تموانياج كريتيان (القورصو، 2007)، ليكو دالجي (زهار، 2011)، دباش دو كونستونتين (كيالة، 2011)، روفي أفريكان (نايلي، 2007)، روفي أزياتيك (معريش، 2007)² أو الصحافة الاستعمارية الفرنسية بشكل عام (صافر، 2005).

واهتم الباحثون أيضا بالجرائد والمجلات المشرقية باعتبارها مصدرا لدراسة قضايا المغرب العربي بشكل عام والجزائر بشكل خاص، وتمثل في العناوين التالية: المنار

(سعودي، 2001/ لخمير، 2005/ بوفروك، 2011/، الفتح (حسين، 2001/ زفراف، 2012)، حضارة الإسلام (حايد، 2012)، الفكر (جلاوي، 2009)، دعوة الحق (خي، 2003)، الآداب (جوبية، 2004)، الأهرام (هندي، 1984)... الخ. كما قدم الباحثون رسائل تناولت تاريخ شامل للصحافة الجزائرية (تونزة، 2002)، والتونسية (اللولب، 2002)، والعراقية (الزبيدي، 2004).

وتؤكد هذه الدراسات على وجود ارتباط واضح بين التاريخ والصحافة باعتبارها وثيقة أو مصدر، وتفنن ما يعتقد البعض أن الجريدة هي مرجع غير موثوق فيه. إنه أتضح العكس ما دامت الصحيفة تخضع لأصول البحث العلمي الصارمة كغيرها من الوثائق الأخرى.

الحركة الإصلاحية في الجزائر والعالم الإسلامي:

بلغت عدد الرسائل المخصصة للحركة الإصلاحية 52 رسالة منها 7 دكتوراه. وتعتبر رسالة الماجستير التي أعدها الأستاذ أحمد مريوش في عام 1993 عن الشيخ الطيب العقبي بإشراف الدكتور أبي القاسم سعد الله أول دراسة تاريخية أكاديمية في التاريخ المعاصر في الجامعة الجزائرية تناولت شخصية إصلاحية بعد أن كانت دراستها محصورة في معاهد الأدب والدراسات الإسلامية.

ومن إجمال هذه الرسائل لم يكن بينها سوى رسالة ماجستير واحدة عن الشيخ عبد الحميد بن باديس (توميات، 2010) ومعنى هذه الإحصائية أن مساهمته في الحركة الوطنية بشكل عام والحركة الإصلاحية بشكل خاص لا تذكر ولا تتناسب تماما مع حجم كفاحه الوطني ونضاله العربي والإسلامي. وحظي عدد من أعلام الإصلاح باهتمام الباحثين خاصة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي أنجزت حوله دكتوراه واحدة (فايد، 2010)، و4 رسائل ماجستير (فايد، 2001/ بشراير، 2004/ بن حامد، 2006/ صدوق، 2012).

ويأتي في المرتبة الثانية الشيخ محمد السعيد الزاهري برسالتين ماجستير (بلعجال، 2006/ مخلوف، 2012). أما الآخرون فلم تنجز حولهم إلا رسالة ماجستير واحدة، وهم على التوالي حسب تاريخ المناقشة: مالك بن نبي (مسعودي، 1995)، إبراهيم بيوض (1997)، الفضيل الورتلاني (مولاي، 1999)، مبارك الملي (بن طاهر، 2001)، المولود الحافظي (آيت بعزير، 2002)، محمد خير

الدين (هلايلي، 2006)، أبو اليقظان (بن رحال، 2006)، أحمد رضا حوحو (حوحو، 2006)، أبو يعلى الزواوي (فرداد، 2007)، أحمد توفيق المدني (خليف، 2008)، أحمد حماني (حداد، 2008) / الأمين العمودي (2009)، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش (شعشوع، 2012).

وتناولت الدراسات الأخرى جوانب متعددة من نشاطات الحركة الإصلاحية في الجزائر (بن موسى، 2006 / جاك، 2002 / زقور، 2007 / علايلي، 2007، قوبع، 2008 / مولاي، 2007)، وتابعت إنجازاتها في الخارج (بورنان، 2009 / فلاح، 2008 / مريقي، 2011 / إبراهيمي، 2012)، وأبرزت مواقفها من الأحداث الوطنية (بلمهدي، 2011، بن عودة، 2005 / بوقجاني، 2000 / عرعار، 2006 /)، واهتماماتها العربية والإسلامية (حميدي، 2011) ومعالجتها لقضايا معاصرة (بوثرید، 2004 / بلاح، 2010 / بن عدة، 2008 / موهوبي، 2012)، وحللت محتويات ومضامين صحافتها كما سنتطرق إليه لاحقاً. بوثرید، 2004، بن شوش، 2008 / بوحاوش، 2012).

وفيما يخص الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي، فإننا وجدنا عددا من الرسائل تناولت الصلات القوية بين الجزائر والجامعة الإسلامية (دراوي، 2008،) وأكدتها أصداء سقوط الخلافة الإسلامية في الجزائر وغيرها من البلدان العربية (قن، 2007 / شرفة، 2007 / فرز، 2007). كما نوقشت رسائل عديدة حول شخصيات إصلاحية مغربية ومشرقية وهي: محمد رشيد رضا (هزري، 2006)، شكيب أرسلان (فايد، 2010)، عبد العزيز الثعالبي (رحاي، 2005 / يزير، 2011)، علال الفاسي (رحاي، 2005)، طاهر الجزائري (لعميد، 2001)، محمد بيرم الخامس (بن دحمان، 2011)، عمر المختار (دحدي، 2010)، محب الدين الخطيب (حسين، 2001)، الحاج أمين الحسيني (ثامر، 2007)، عز الدين القسام (ثامر، 2007).

الفكر التاريخي: البعد الغائب!

بيّنت عدة دراسات تاريخية معاصرة الدور البارز والمتكامل لعوالم الأشخاص والأفكار والأشياء في تفعيل حركة التاريخ وأعادت لعلم التاريخ روحه. والملفت لانتباه أن الدراسات المهمة بتاريخ التاريخ والفكر التاريخي ما زالت نادرة بسبب

اعتبار ذلك من اختصاص الفلسفة وليس التاريخ. إنه من حق الفلسفة وواجبها أن تطرح الأسئلة على إنتاج المؤرخين، وتناقش النظريات التاريخية، بل من واجب التاريخ أيضا أن يدرس الأحداث والأخبار والأشخاص بذهن ناقد وتحليل دقيق ومقارنة شاملة.

وتبين الإحصائيات أنه لم يدرس إلا ثلاثة (3) مؤرخين بشكل مستقل، وهم مبارك الملي (بن طاهر، 2001)، وأحمد توفيق المدني (خليفة، 2008) وعمار هلال (مغدوري، 2009). وإذا درس الباحثان بن طاهر وخليفة دور المؤرخين في الحياة السياسية و الثقافية، ولم يتطرقا لجهوده التاريخية إلا باختصار، فإن الباحث مغدوري تناول الكتابة التاريخية عند عمار هلال بالنقد والتحليل. وثمة رسالتان اهتم صاحبهما (كعوان، 2012/ ميسوم، 2012) بتاريخ الدراسات التاريخية والمؤرخين الجزائريين خلال الفترة الاستعمارية.

ونجد قليلا من الدراسات التي اهتمت بتاريخ الأفكار والذهنيات والإيديولوجيات، أذكر أطروحات الأستاذ فتح الدين أزواو (2002) حول إيديولوجية الثورة الجزائرية، والأستاذ أحمد رضوان شرف الدين (2005) حول "مشروع الدولة- الأمة والعروبة عند النخب الجزائرية"، والتيارات الفكرية في الجزائر لإبراهيم لونيسي، (2005)، والقيم الديمقراطية في الثورة لرياض بودلاعة (2006)، أو مفهمي الدولة والأمة في أدبيات الحركة الوطنية، حول الفكر الوحدوي العربي (نويصر، 1997، 2007)، الخطاب النهضوي في الجزائر (عبد المجيد بن عدة 2008)، الفكر الوحدوي المغاري (بلقاسم، 2010)، والمسألة الثقافية عند النخبة الليبرالية الجزائرية (دويذة 2011)، وتطور الفكر الاستعماري خلال القرن 19 (بوجناح، 2012).

ولقد حاولت منذ سنوات الاشتغال بالفكر التاريخي لأهميته التي أشرت إليها سابقا، وتوجت كل تلك الجهود بنشر دراسات في هذا المجال منها: "مسألة التاريخ عند الشيخ عبد الحميد بن باديس"³، "فكرة التاريخ عند مالك بن نبي"⁴، "هاجس التاريخ عند مولود قاسم"⁵، و"شيء من فقه التاريخ"⁶.

تاريخ الثورة الجزائرية يتحرر:

لا شك أن الجزائر التي عاشت ربع قرن في ظل نظام اشتراكي وسيطرة الفكر الأحادي على معظم مجالات حياة الناس، وهيمنة الدولة على كل النشاطات الحيوية للمجتمع، كان من الصعب طرح أفكار وتناول قضايا حساسة لا تنسجم مع السياسة العامة التي سطرها المؤسسات أو الهيئات الوصية.

وعانى البحث التاريخي كغيره من الرقابة، وتعرضت بعض الإصدارات للرقابة والمصادرة (فرحات عباس، محمد حربي، محمد لبجاوي، عبد اللطيف سلطاني). ومست المصادرة كتباً تاريخية لباحثين أجانب كسلسلة الكتب التي ألفها المؤرخ والصحفي الفرنسي إيف كوريير عن الثورة الجزائرية.

فالحق أن الحريات العامة عرفت تطوراً كبيراً منذ نهاية الثمانينيات، حيث كرس دستور فبراير 1989، حرية التعبير والصحافة. ولم تعد الدولة تراقب بشكل مكثف ومجحف الإبداع الفكري، والبحث في الدراسات الاجتماعية والإنسانية.

ولكن، العديد من الباحثين ظلوا يفكرون بعقلية الستينيات والسبعينيات، كأن الجزائر لم تتغير ويمارسون على أنفسهم الرقابة الذاتية بالكتابة في مواضيع قديمة وبأسلوب وصفي دون تحليل وإبراز آرائهم ومواقفهم، أو الصمت والاهماك في التدريس، أو الجري وراء جواذب الحياة السياسية والمادية.

نلاحظ أن الكتابات المتعلقة بتاريخ الثورة الجزائرية نشرت خارج الجزائر لأسباب عديدة بأقلام المؤرخين الفرنسيين ونفر من الباحثين الجزائريين منذ الستينيات من القرن الماضي. وتتسم غالبية هذه الكتابات بالتركيز على الجوانب العسكرية والخلافات الأيديولوجية التي عاشتها وعرفتها الثورة الجزائرية خاصة بعد مؤتمر الصومام (1956).

وقد زالت الآن العوائق وبدأت الجامعات الجزائرية بالاهتمام الأكاديمي لتاريخ الثورة الجزائرية، وفتحت تخصصات في داخل أقسام التاريخ تعني بهذه الثورة. وأنجزت خلال السنوات الأخيرة بحوث جامعية (ماجستير ودكتوراه) أبرزت صفحات مجهولة من تاريخ الثورة الجزائرية، وطرحت إشكاليات جديدة، وفتحت آفاقاً للدارسين والباحثين. وبلغ عددها 138.

واهتمت هذه الرسائل بدراسة حياة قادة الثورة وأبرز إسهاماتهم، وهم: مصطفى بن بولعيد، العربي بن مهيدي، عابن رمضان، أحمد بن بله، بن يوسف بن

خدة، عميروش، سي الحواس، احمد بوقرة، سويداني بوجمعة، الجليلي بونعامة، محمد أولحاج، محمد شعباني، فرانس فانون.

كما أنجزت رسائل حول مختلف الولايات التاريخية (بن داهة، 2001/ بيثي، 2004/ بن شرفي، 2006/ بن علي، 2006/ بوحوم، 2006/ بيتور، 2007/ برجوح، 2012/ ، بلهادي، 2012، بن الذيب، 2012/ بن حرز الله 2012)، وأحداث حاسمة (بلهادف، 2005)، ونشاط الدبلوماسية (بوضربة، 2002، 2011/ عصماني، 2002/ كرليل، 2011) وجهود المنظمات الجماهيرية (عقيب، 2001) لدعم الثورة في الخارج.

ودرست تنظيم الثورة لمواجهة كل التحديات النفسية والعسكرية والتموين والتسليح (قندل، 2000/ بديدة، 2001/ حفظ الله، 2001/ أعراب، 2002/ بن أزواو، 2002/ غالي، 2005، يحياوي، 2006/ بن دارة 2010/ بلعيد، 2010/ بلهادي، 2012)، ومعالجة السياسية والدبلوماسية التي تفرضها السلطة الاستعمارية، وكشف أسرار المعتقلات (بناجي، 2004/ صحراوي، 2007/ سعدي، 2011/ قيزي، 2012). كما تجرأ البعض في دراسة قضايا شائكة ما زال الجدل قائما حولها مثل الحركة المصالية (بن زروال، 2003، 2012)، والحركات المناوئة للثورة التحريرية (شبوط، 2012)،

ونستنتج مما سبق أن الحجم الحالي للرسائل المخصصة للثورة الجزائرية يمكن اعتباره مقبولا من ناحية الأعلام الذين قادوها، أو من ناحية الأحداث الكبرى التي وقعت خلالها، أو أصدائها في العالم وتفاعل الدول والشعوب معها.

كتابة تاريخنا في ضوء العلوم الاجتماعية

هنالك تكامل معرفي بين التاريخ والعلوم الاجتماعية إذ لا يمكن للتاريخ أن يستغني عن تطور العلوم الاجتماعية خاصة بعد الطفرة الكبيرة التي عرفتھا العلوم الإنسانية سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية. ألا تؤدي صرامة العلوم الاجتماعية إلى وضع قيود أكاديمية ضيقة على الكتابة التاريخية؟ أو بعبارة أخرى إخراج التاريخ من حظيرة الآداب وإقحامه في "سجن" العلوم الاجتماعية؟

نقر في البداية أن الفكر الغربي المعاصر نفسه عرف ظاهرة النقد المتزايدة للعلوم الاجتماعية، التي أبرزت الأزمة التي تمر بها علوم الإنسان والمجتمع، وكشفت عن

تحيزها للمركزية الغربية. ومن أهم هذه الكتب التي عاجلت هذا الموضوع: "أبحاد ومآسي العلوم الاجتماعية" لكايي، "الأساطير المؤسسة للعلوم الاجتماعية" لبول كلافل، و"أزمة علم الاجتماع الغربي القادمة" لألفن غولدنر...إلخ.

يحتاج المؤرخ في ممارسته الكتابة التاريخية إلى استدعاء دائم لعلوم تساعد على فهم الماضي بفك رموزه، وتحليل ظواهره من أجل بناء نصه التاريخي كعلم الاجتماع، والفلسفة، الأنثروبولوجيا، اللسانيات، الجغرافيا، علم النفس، علم الآثار...إلخ.

وأكدت هذه الاعتبارات العديد من البحوث والدراسات التي اهتمت بالتكامل المعرفي بين العلوم الاجتماعية والإنسانية، مبرزة على سبيل المثال المساعدات التي تقدمها هذه العلوم للتاريخ، ومن أبرز هذه الدراسات إصدارات مدرسة الحوليات الفرنسية⁷ (l'Ecole des Annales)، والتقرير المفصل الذي وضعته لجنة كتابة التاريخ التابعة لمجلس الأبحاث في العلوم الاجتماعية بالولايات المتحدة الأمريكية.⁸ ومع ذلك لا تدرس العلوم الاجتماعية في أقسام التاريخ الجزائرية. ونحن ندعو إلى برمجتها على طلبة التاريخ، ليتعودوا عليها خلال دراساتهم الجامعية، فيستعينون بمناهجها في ممارستهم للبحث التاريخي أو الكتابة التاريخية.

لقد تعمقت العلاقات بين التاريخ والعلوم الاجتماعية خاصة بعد الإيضاحات التي قدمها المؤرخ الكبير فرناند برودل في مقاله الشهير الصادر في عام 1958،⁹ ومقال شارل موراز النفيس المنشور في عام 1968.¹⁰ وتوفر العلوم الاجتماعية للمؤرخ مواضيع خصبة وآفاق جديدة للدراسة كما تقدم له أدوات جديدة للبحث. فعلم الإحصاء. يستعين به المؤرخ من خلال حسابات وجداول ورسومات بيانية خاصة بعد انتشار الكمبيوتر بفضل استخدامه للكمبيوتر والإنترنت. ويعتبر المؤرخ الفرنسي إيمانول لوروي لادوري أول من دعا إلى استعمال الكمبيوتر في كتابة التاريخ، وذلك في كتابه الشهير (Le territoire de l'historien) الصادر في عام 1973.¹¹ وقد تفتن المؤرخون العرب لهذه الأداة فأوصوا بها كما فعل الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش في كتابه "مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والإنترنت".

ويفصل علم الإحصاء في قضايا تاريخية شائكة كإحصاء الوفيات في الحروب. فالاختلاف بين المؤرخين الجزائريين والفرنسيين جوي برفييه¹²، وكسافيه ياكونو¹³، حول عدد القتلى في مجازر 8 ماي 1945، أو في حرب التحرير أو خلال مظاهرات 17 أكتوبر 1961 في باريس. وتحوّل الأرقام إلى مصدر لسجلات وجدال حاد بين المؤرخين الفرنسيين أنفسهم، مثل ما وقع بين جون لوك إينودي¹⁴ وجون لويس بروني¹⁵ حول عدد ضحايا مظاهرات 17 أكتوبر بباريس، أو السجل بين بروني¹⁶ والباحثين البريطانيين جيم حاوز ونيل ماكملستر¹⁷ حول نفس الموضوع.

ويعتمد علم اجتماع الحديث كثيرا على المسألة ووضع الاستبيان (Questionnaire). وهذا يساعدنا على تصنيف نشاط الحركة الوطنية وفق محددات مختلفة. وقد قام المؤرخ بنيامين ستورا بدراسة اجتماعية لهم، وخلص أيضا إلى وضع موسوعة المناضلين السياسيين الجزائريين¹⁸. إن دراسة التاريخ الاجتماعي للحركة الوطنية على سبيل المثال تسمح لنا بلا شك بمعرفة مدى مشاركة المرأة والعمال والطلبة وغيرهم من الفئات الاجتماعية في الصيرورة التاريخية، وتعيد الاعتبار لها بعد أن كانت محل التهميش.

ويستعين المؤرخ بمنهج علم الأنثروبولوجي لدراسة تاريخ الطرق الصوفية ودور الأسواق والمقاهي في نشر الوعي القومي والوطني، وتحديد دور المداح في تبصير القلوب وتنوير العقول... ومن الدراسات الرائدة في هذا الميدان أذكر هنا: مقال عمر كارلييه¹⁹ حول دور المقاهي في الحركة الوطنية الجزائرية. أو دراسة إيمانويل سيفان²⁰ لتاريخ سوريا في عهد حافظ الأسد عبر دراسة الطوابع البريدية السورية. أو أطروحة جون جاك بيكار²¹ حول انتشار الإيديولوجية في المجتمع الفرنسي من خلال خريطة تواجد تمثال الجندي المجهول عبر التراب الفرنسي، أو دراسة مؤرخين سويسريين للتحويلات الكبرى في حياة لينين من خلال دفاتر الاستعارة لمكتبة جنيف العمومية والجامعية التي اعتكف فيها لينين²² للمطالعة خلال سنوات 1903، 1904، 1905، و1908 بعد هروبه من روسيا.

من المؤرخ إلى خبير في الشؤون التاريخية

لننتقل الآن إلى نقطة أساسية تعد أمرا مهما في تقييم مسار التاريخ بعد ارتباطه بالعلوم المجاورة الأخرى. إنها تتمثل في تطور العلوم الاجتماعية وتطبيقاتها التنموية الذي حوّل المؤرخ إلى خبير في الشؤون التاريخية. لذلك أن المؤرخ لم يعد فقط هو ذلك الشخص الذي ينكب على دراسة الوثائق والمخطوطات، وتنبصر مهمته في إنتاج المعرفة التاريخية من خلال التعليم، وكتابة مقالات وتأليف الكتب، بل أصبح شخصية نافذة تعطي آراءها، وتضع تحليلاتها في وسائل الإعلام المختلفة، وتقدم استشارات لمؤسسات علمية واقتصادية وقطاعات السينما والأفلام، تقدم خبراتها في المحاكم فتقرير المؤرخ له قيمة مماثلة لتقارير الخبراء الآخرين كعلماء النفس أو الأطباء أو المهندسين... الخ.

ويساهم تقرير الخبير (المؤرخ) على سبيل المثال في توضيح حيثيات الحدث أو الجريمة (مثل محاكمة مجرمي حرب)، ويساعد القضاة على الإحاطة بالقضية، وإصدار حكم على ضوء تقرير خبرة كتابيا أو شفويا (شهادة).

فهم الخلفيات التاريخية أو الظرف التاريخي (contexte historique) للحدث جزء من فهم القضية. وتهتم الشركات الكبرى بتاريخ أي مجتمع قبل أن تقوم بأي مشروع استثماري ضخّم على أراضيه لتفادي أي مفاجئات غير سارة، ومواقف غير محسوبة تنتهي بخسائر مادية أو فشل اقتصادي وإفلاس مالي.

على الرغم من كل الدراسات والبحوث التي تناولت تاريخ الجزائر من جوانبه المختلفة في عصورها القديمة والحديثة إلا أنه يبقى البحث في بداياته من حيث القضايا التي اهتم بها المؤرخون، والشخصيات المؤثرة التي كتب عنها الباحثون، والمقاربات التي انطلقوا منها في بحوثهم ودراساتهم المختلفة.

يكتسب هذا الكتاب أهميته من استجابته لمطلب قدم جديد، وتحقيق حلم طالما راود الباحثين الجزائريين، ومواكبة تزايد عدد المقبلين على البحث التاريخي بعد الإصلاحات الأخيرة في التعليم العالي وفتح تخصصات كثيرة في الماستر والدكتوراه. ولقد لمسنا اهتمام الباحثين والطلبة بهذا الكتاب عند صدوره، وإقبالهم عليه في إطار بحوثهم أو انجاز رسائلهم في مجال التاريخ من جوانبه المتعددة وفي مراحلها المختلفة.

ونحن نعتقد أن التوجيهات العلمية والمعلومات الكثيرة المذكورة في هذا الكتاب تشكل واحدة من المرجعيات النازمة للبحث التاريخي في الجزائر رغم بعض

الأخطاء والنقائص الواردة فيه، والتي سنحرص على تصحيحها، وسنعمل على استدراكها في الطبقات القادمة بحول الله.

الهوامش:

- 1 Marc Bloch. Apologie pour l'histoire, ou Métier d'historien, publié en 1949.
- 2 Oran républicain, Témoignage chrétien, L'Echo d'Alger, Dépêche de Constantine Revue Africaine, Revue Asiatique.
- 3- مولود عويمر. عبد الحميد بن باديس مسار وأفكار. دار جصور، الجزائر، 2012، ص 41-58.
- 4- مولود عويمر. مالك بن نبي رجل الحضارة. الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 95-119.
- 5- مولود عويمر. هاجس التاريخ عند مولود قاسم. البصائر، العدد 719، 1 سبتمبر 2014.
- 6- مولود عويمر. شيء من فقه التاريخ. التواصل. العدد 2، نوفمبر 2014.
- 7 Le Goff (Jacques), Nora (Pierre). (dir). Faire de l'histoire. Paris, Gallimard, 1973-1974, 3 tomes.
- 8- هيوم اتكن (محرر). دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية. بيروت، دار العلم للملايين، 1963، تر. الدكتور محمود زايد، تقديم الدكتور قسطنطين زريق، ص 231.
- 9 Fernand Braudel. Histoire et sciences sociales: la longue durée. Annales, octobre-décembre 1958, pp.725-753.
- 10 Charles Moraze. L'histoire et l'unité des sciences de l'homme. Annales, mars-avril 1968
- 11 Emmanuel Le Roy Ladurie. Le territoire de l'historien. Gallimard, Paris, 1973, p 11-14.
- 12 Guy Pervillé. Combien de morts pendant la guerre d'Algérie? L'Histoire, n° 53, février 1983.
- 13 Xavier Yacono. Les pertes algériennes de 1954 à 1962. Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°2, 1982.
- 14 Jean Luc Einodi. La Bataille de Paris – 17 octobre 1961. Le Seuil. 1991.
- Jean-Paul Brunet. *Police contre FLN, le drame d'octobre 1961*, Flammarion, 1999.15
- 16 Jean-Paul Brunet. Sur la méthodologie et la déontologie de l'historien. Retour sur le 17 octobre 1961. Commentaire (Paris), vol 31, n°122, été 2008. .
- 17 Jim House et Neil MacMaster, *Paris 1961 : Les Algériens, la terreur d'État et la mémoire*, Tallandier, 2008.

-
- 18 Benjamin Stora. Les sources du nationalisme algérien. L'Harmattan, Paris, 1989 ; Dictionnaire biographique de militants nationalistes algériens 1926-1954. L'Harmattan, Paris, 1985.
- 19 Omar Carlier. Le café maure. Sociabilité masculine et effervescence citoyenne (Algérie XVIIe-XXe siècles) - article ; n°4 ; vol.45, p 975-1003
- 20 Emmanuel Sivan. Symboles et rituels arabes. Annales, n°4, juillet- août 1990.
- 21 Jean-Jacques Becker. Les Français dans la Grande Guerre, Paris, Robert Laffont, 1980
- 22 Bernard Gagnebin et Jacques Picot. Les lectures de Lénine à Genève. Revue historique, tome 267, 1982, p 391-404.